مقدمة

(الطبعة الأولى)

لا يكاد المرء يقبل على أحد مؤلفات المحدثين فى علم النفس ، حتى يعلنه أصحاب هذا العلم أنه قد انفصل عن الفلسفة انفصالا تامًّا ، فخلف جانباً ما ألفه الفلاسفة من بحث نظرى فى الروح وتأمل فى النفس ، وأخذ يصطنع فى دراسة الظاهرات النفسية منهجاً جديداً — مما هيأ لأصحابه أن يعلنوا أنه قد شبّ عن الطوق وصار « علماً » .

وهم يفخرون أنهم قد استطاعوا أن يطلقوه من قيود التأمل الفلسفى ، وأن يحرّروه من ربقة النقاش والجدل النظرى ، حتى صار علماً ، له مناهجه المضبوطة المعينة فى دراسة ظواهر النفس وحدها ، فلم يعد يعرض لكنه الروح أو ماهية النفس ، بل يقتصر على دراسة ما يصدر عن النفس من أشكال النشاط التى تنتظم ألواناً من الإدراك أو الوجدان أو النزوع ، أو هذه الألوان كلها معاً . ولم يعد يبحث عن أصل هذا الينبوع ، الذى يفيض على شعور الإنسان شتى وجوه نشاطه ، بل يتلمس وجوه هذا النشاط ، ينظر فيها ، ويصنفها ، ويضم بعضها إلى بعض ، ويبين العلاقات التى تقوم بينها .

ويقولون إنهم ما زالوا يتخذون اسم علم النفس — على خطئه فى الأداء — كما يستمسك صاحب الفلك بالتحدث عن غروب الشمس ، وهو موقن أن الشمس فى فلكها ثابتة لا تريم عنه . يستمسكون بهذا الاسم ، لا على أنه دراسة للنفس فى ذاتها ، أو للروح وماهيتها ، بل على أنه دراسة لمظاهر الحياة النفسية والقوانين العامة للحياة العقلية للفرد ، وبحث فى أشكال السلوك الإنسانى .

كنا نقرأ هذا فى مؤلفات علم النفس فنفكر فيه ، ونقرأ ما كتبه الفلاسفة

ونفكر فيه فرأينا أن أصحاب علم النفس ، وإن يكونوا قد جهدوا حقًّا فى اصطناع المناهج العلمية ، وفى تحديد موضوع العلم ، فإنهم لم يوفقوا كثيراً فيما أخبروا الناس به ، وأنهم ما زالوا يصطنعون أساليب النظر الفلسفى ، من حيث الموضوع ومن حيث المنهج .

رأينا أنهم ، وإن كانوا يقصرون أنفسهم أول الأمر ، على دراسة ظاهرات النفس فإنهم قد انتهوا ، فى كثير من الأحايين ، إلى القول بنظريات تعرض لعلة النشاط النفسى بل إلى إقامة مذاهب بأكملها ، تبعد بهم كثيراً عما استنوه لأنفسهم حتى تصل بهم آخر الأمر إلى مرتبة التأمل النظرى فى أمور تبلغ سماك الفلسفة الأولى .

كما رأينا أنهم مع ما وفقوا إليه من بحث بين جدران المعامل ، واصطناع لأصول الملاحظة والتجريب ، وعمل على إخضاع الكيف للكم ، واستخدام للإحصاء والمعارف الرياضية فى دراسة بعض جوانب الحياة النفسية ، فإنهم كثيراً ما كانوا ينسون ذلك كله ، أو ييأسون من اصطناعه فى الجوانب الأخرى فيلجأون إلى مناهج الفلسفة وطرائق الجدل فيها حتى يكمل الواحد منهم ما بدأه من بحث أو ما وفق إليه من كشف .

رأينا ذلك فى مطلع اشتغالنا بالفلسفة وبعلم النفس فعجبنا له واشتد بنا العجب حين امتدت بنا السنون وتوفرنا — ما وسعنا الجهد والوقت — على تفهم ذلك ، فلم نر سوى إلحاح على أن علم النفس قد طلق التفكير النظرى إلى غير رجعة ، وهو فخور بهذه الفرقة يرجو له أصحابه فيها خيراً عميما .

فأخذنا نحقق هذه الفكرة ، وتخيرنا مذهب علم النفس الفردى — الذى قال به ألفرد أدلر — من بين مذاهب علم النفس ، لأنه يمثل جانباً كثير الذيوع يؤمن القوم بأنه علم صحيح ، وبأنه معرفة تمتنع على النقاش والجدل ، كما يكثرون من استخدامه وتطبيقه . وكثيراً ما يؤدى تطبيقهم له إلى نجاح وتوفيق يزيدهم يقيناً بأنه علم خالص ، لا يمت إلى البحث الجدلى بصلة ، ولا تربطه بالفلسفة أية علاقة .

وبدا لنا ، بعد النظر ، أن هذا المذهب نفسه — على أنه لون من ألوان السيكلوچية المعاصرة — لا يمكن أن يوصف بأنه علم خالص ، لأنه لم يصبح بعد علماً صحيحاً ؛ كما أنه لم يعد فلسفة خالصة . ورجونا أن نصل من ذلك إلى القول بأنه ينبغى أن نتريث كثيراً قبل أن نعلن أن علم النفس بأجمعه قد انفصمت عراه عن الفلسفة . لأن هذا الزعم إذا كان يشيع زهو من يقبلون عليه من غير أبوابه ، فهو زعم خاطئ باعث على الخطأ ، إذ أن علم النفس فى جملته ما زال يعمل فى حقلين وما زال يصطنع طريقين : فمنه جانب وفق الناس إلى اصطناع البحث والتجريب فيه ، وجانب آخر ما زال أحصف أصحاب علم النفس يلجأون فيه إلى الجدل والنظر المجرد . ومن ثم لا يستطيع أحد أن يجزم بأن هذا العلم سوف يوفق قريباً إلى اصطناع مناهج البحث العلمى اصطناعاً كاملا فى كل جوانبه ، ذلك لأن الإنسان كائن معقد أشد التعقيد ، تعرضت كثير من العلوم لدراسته ، كل منها فى ناحية . أما الإلمام به كوحدة متكاملة فأمر عسير كل العسر ، ما زلنا على اتساع الخطوات التى قطعها علم النفس الحديث بعيدين عن الوقوف عليه . بل لعلنا فى حاجة إلى منطق جديد إن أردنا أن ندرس الإنسان وأن نتفهم حياته !

فإذا زعم أحد — رغم أن ما أسلفناه هو الواقع — بأن علم النفس قد نضج واكتمل ، كان هذا الزعم إلى جانب بعده عن الحقيقة مدعاة إلى القعود عن استكمال ماينبغى لذلك العلم من أصول الدراسة العلمية ، ومبعثاً إلى إيمان الناس بآراء ومذاهب لايقوم كثير منها إلا على النظر المجرد ولا يعتمد إلا على الجدل ، رغم كل ما قد يكون فيها من الجدة أو ما قد تتسم به من ابتكار وأصالة .

* * *

ونحن نود أن نشكر ، على البعد ، أستاذنا أندريه لالاند ، وأن نعبر عن عرفان مقيم له بالنفس منذ استقبلنا فى صدر الشباب يرعانا بعطفه ، ويهدينا إلى مثل جليل فى حب المعرفة وسماحة العلم ، لم نر خيراً منه تحقيقاً له فى حياته . وأن

نذكر له أن دعانا إلى الانتظام إليه بعد أن باعدت الأيام بيننا وبينه ، وأرشدنا إلى القيام بهذا البحث ، وبذل من جهده ووقته وعلمه ما ضرب لنا به مثلا سوف نحاول أن نتابعه ما امتد بنا الأجل أو اختلفت بنا الأيام .

كما نود أن نسجل هنا لأستاذنا إسماعيل القبانى شكراً خالصاً على ما زودنا به من مراجع ، وما قرأ من فصول ، وما بذل من وقت ثمين أمتعنا فيه بألوان رائعة من الفلسفة والنقد وحدة الذهن .

ولا نستطيع أن نفصح للأستاذ الدكتور يوسف مراد ، فى هذا المقام بالذات ، عن قدر شكرنا إياه ، وعن مدى إعجابنا به . ونرجو أن نفيه يوماً حقه من الشكر والثناء .

اسحق رمزى

القاهرة ، يناير ١٩٤٢